جامعة عبد الرحمان ميرة

كلية الآداب و اللغات **أ.د.سعيد شيبان**

قسم اللغة والأدب العربي

الموازنات النقدية

تعود باكورة الموازنات النقدية في الأدب العربي إلى العصر الجاهلي، حين وازنت "أم جندب" شعر "ذي القروح" بشعر "علقمة بن عبدة" في وصف الفرس، ناهيك عن تلك الموازنات والمفاضلات التي كانت تقام في الأسواق والمجالس العامة. وفي صدر الإسلام أصبحت الموازنات بين القرآن الكريم وكلام العرب من حيث أوجه البيان والإعجاز.

وابتداءً من القرن الرابع الهجري، خلا ميدان الأدب للنقاد الذين عُنوا بدراسة الشعر، وتحاوروا فيه، وتخاصموا، وحللوا الظواهر الأدبية وعللوها. وقد شهدت هذه الفترة احتدام الصراع بين أنصار عمود الشعر وأنصار الشعر المحدث، فعدّ كتاب الموازنة لأبي الحسن بن بشر الآمدي (ت 370هـ) تتويجا للحركة النقدية التي نشأت حول "أبي تمام" و"البحتري" في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، فجاء هذا الكتاب جامعًا لآراء النقاد في القرن الثالث والرابع، مضافا إليه ما ترسخ عند الآمدي من نظرات نقدية ترسبت لديه من ممارسته لنقد الشعر القديم والمحدث، كما تضمن خلاصة لما يدور في المجالس العامة والمحافل النقدية.

1- الموازنة بين الشعراء في كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي(ت231هـ)

حاول ابن سلام الجمحي تصنيف الشعراء إلى مراتب وطبقات، فاهتدى بذوقه الخاص وما اكتسبه من معارف السابقين أن يوازن بين الشعراء بعين الفاحص المدقق، فقسّم شعراء كل عصر إلى طبقات، مما يوحي بأن التفاوت بينهم يعود إلى "المنزلة الأدبية أو بسبب

سيرورة الشعر أو كثرة الإنتاج الأدبي أو جودته، أو بسبب القدرة على التصرف في فنون الشعر المختلفة"[1]. فحين يتحدث "ابن سلام" عن "امرئ القيس" الذي جعله في رأس طبقة الشعراء الجاهليين، نراه يقول: "سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، فاستحسنها العرب واتبعته فيه الشعراء، منه استيقافه صحبه، والبكاء في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ. وشبّه النساء بالظباء والبيض، والخيل بالعقبان والعصيّ، وقيّد الأوابد وأجاد في التشبيه، وفصل بين النسيب والمعنى، وكان أحسن طبقته تشبيهًا"[2].

تأسيسا على الرأي السابق، نستخلص أن أسلوب الموازنة عند "ابن سلام" كان بسيطا، بدائيا، كان يحتكم فيه إلى جملة من العوامل والمقاييس منها: الجودة والكثرة، العامل الديني، وعامل البداوة والحضرية.

2- الموازنة بين الشعراء في كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي (ت 370هـ).

يعد كتاب الموازنة للآمدي من أبرز الكتب النقدية في نقد النصوص وتحليلها، وقد فاضل الآمدي بين البحتري وأبي تمام "لغزارة شعرهما وكثرة جيدهما وبدائعهما، وذكر لكل خواصه مع ميل للبحتري وإن حاول إخفاءه وادعى البراءة منه"[3].

وقد ارتكزت موازنة الآمدي على أربعة عناصر أساسية هي:

- ذكر المساوئ للانتهاء إلى ذكر المحاسن.

- الموازنة التفصيلية بين الشاعرين.

- إفراد باب لما وقع في شعريهما من تشبيهات وبابًا آخر لما وقع في شعريهما من أمثال.

---

[1]- قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان، معالمه وأعلامه، ص293.

[2]- ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص17.

[3]- أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ص282.

– مختارات مقتطفة من شعر الشاعرين مرتبة حسب حروف المعجم، ليسهل على المراجِع طريقة الوصول إليها.

وقد اهتدى الآمدي في موازنته إلى ثقافة واسعة في الشعر، واطلاع عميق على معاني القدامى والمحدثين، ناهيك عن الإتيان بشواهد شعرية كثيرة. ومع ذلك رأى العديد من النقاد والدارسين أن الآمدي في موازنته حكم بالأفضلية للبحتري وقلل من شأن أبي تمام.

وفي هذا الصدد يقول الباحث خضر موسى: "كان الآمدي ذا منهج واضح، فقد استطاع بثقافته الواسعة وذوقه الرفيع الموازنة بين الطائيين، ويتوصل إلى نتائج رائعة، ولا يقلل من قيمته إلى مذهب البحتري في الشعر"[4].

3- الموازنة بين الشعراء في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي عبد العزيز الجرجاني (ت 392هـ)

لم يكن كتاب الوساطة مقصورًا على شعر المتنبي والرد على خصومه كما يتَبادر من قراءة عنوانه، إذ تضمن تحليلا مستفيضا لأشعار القدامى والمحدثين، وعرض للكثير من محاسنهم وعيوبهم، ودرس عميق لبعض الظواهر النقدية التي طالما تمادى فيها الأدباء كالسرقة والغموض وأنواع البديع...أما منهج الجرجاني في كتابه الوساطة، فقد أراد الوقوف موقف المنصف بين المتنبي وخصومه، ليزيل اللبس عن تلك الخصومة ليظهر ما وراءها، ويظهر ما كان في القرن الرابع من خصومات قللت من شأن المتنبي وأظهرته شاعرًا كثير السطو والإغارة على شعراء آخرين.

وقد حاول الجرجاني في وساطته إيجاد معايير ثابتة تطبق على الشعراء، بغض النظر عن عصورهم وأزمانهم. كما أن أسلوب الموازنة في كتابه يقوم على "إنصاف المتنبي

---

[4]- خضر موسى محمد محمود، موازنة الآمدي ووساطة الجرجاني، دراسة أدبية مقارنة، ط1، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 2008، ص170.

ووضعه حيث ينبغي أن يوضع بين الشعراء الفحول، فلا يتعصب له أو عليه، وإنّما يبيّن محاسنه الكثيرة ويشير إلى هفواته"[5]. أما أسلوب القاضي الجرجاني في الموازنة بين الآراء المتحاملة على المتنبي والآراء المدافعة عليه، يمكن القول أنه اهتدى إلى عدة عناصر منها:

– تناول ما أعابه النقاد على شعر المتنبي، وما أخذه العلماء عليه من مآخذ، ثم يناقشها ويحللها ويفصل القول فيها.

– إظهاره للحق والكشف عن القيم الفنية والأدبية من غير تعصب أو اندفاع.

– الدفاع عن المتنبي من دون أن يخوض في النقاش والاكتفاء بالقول أن كبار الشعراء وقعوا فيما وقع فيه المتنبي.

4– الموازنة بين الشعراء في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني (ت 456هـ)

أشار صاحب العمدة إلى الموازنة في خضم حديثه عن مسألة الصراع بين القديم والحديث، فأبان عن رأيه الصريح في المسألة قائلا: "كل قديم من الشعراء هو محدث في زمانه"[6].

وقد أشار إلى ذلك التعصب الذي لازم الرواة واللغويين من أمثال الأصمعي ويونس بن حبيب، فهؤلاء لا يهمهم في الشعر إلا جمع الشواهد اللغوية، ولذلك آثروا السبق الزمني في المفاضلة والموازنة بين الشعراء، ولذلك أورد قول الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: "جلست إليه ثماني حجج، فما سمعته يحتج ببيت إسلامي! وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبيح فهو من عندهم"[7].

---

[5]) المرجع السابق، ص60.

[6]) ابن رشيق، العمدة، ج1، ص114.

[7]) المصدر نفسه، ص80.

ويرى ابن رشيق بأن أشعار المحدثين مكملة لأشعار القدامى قائلا: "إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين: ابتدأ هذا بناء، فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حَسُن، والقدرة ظاهرة على هذا وإن خشن"[8].

فالشاعر القديم حسب ابن رشيق، يمتلك طبعا وسجية وفطرة على التغني بالشعر على الرغم من الطابع الخشن للألفاظ والعبارات، في حين أن التصنّع والكلفة بادية على الشعر الجديد بحكم الظروف المستحدثة في البيئة الجديدة.

فالشعر الجيد إذن، هو الذي يزاوج بين أصالة القديم ومعطيات الجديد، واللافت للانتباه أن ابن رشيق لم يتردد في إظهار إعجابه بطريقة المحدثين في الصناعة الشعرية، فاستشهد برأي ابن وكيع التنيسي في التفرقة بين الفئتين، ولذلك شبه الشاعر المحدث بالمغني ذي الصوت الجميل، فعلق بقوله: "وهذا التمثيل الذي مثله ابن وكيع من أحسن ما وقع، إلا أنّ أوله قول أبي نواس: صفة الطلول بلاغة القدم *** فاجعل صفاتك لابنة الكرم.[9]

5- الموازنة بين الشعراء في كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني (ت684هـ)

يعرف حازم القرطاجني الشعر بكونه "كلام مخيّل موزون مختص في لسان العرب بزيادة التقفية. والتئامه من مقدّمات مخيّلة، صادقة كانت أو كاذبة، لا يشترط فيها – بما هي شعر – غير التخييل"[10].

---

[8])المصدر السابق، ص81.

[9]) المصدر نفسه، 82.

[10]) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص89.

فالتخييل قوام الصناعة الشعرية، فإذا تكونت في ذهن المتلقي صورًا ترتبط بالنفس وتحرك فعاليتها سلبًا وإيجابًا "كان الكلام قولاً شعريا. لأن الشعر لا تعتبر فيه المادة، بل ما يقع في المادة من التخييل"[11]. فحسن التخييل والمحاكاة يمنحان للنص بعدًا جماليا.

وقد أشار القرطاجني أن الشعر يختلف باختلاف الأشياء فيما يليق، باختلاف أنماطه وطرقه وأغراضه "والأقاويل الشعرية تختلف مذاهبها وأنحاء الاعتماد فيها بحسب الجهة أو الجهات التي يعتني فيها الشاعر بإيقاع الحيل التي هي عمدة في إنهاض النفوس لفعل شيء أو تركه"[12].

وقد استبدل القرطاجني في مفاضلته بين الأقاويل الخطبية والأقاويل الشعرية بأن "كل ما وقع منها في الشعر غير مقصود فيه كذب أو صدق، فلا تعدّ أقاويل كاذبة أو صادقة، بل هي أقوال مخيّلة"[13] وقد استدل على ذلك بقول مرئ القيس:

*وإن كنتِ قد ساءتك مني خليقة *** فسلي ثيابي من ثيابك تنسلِ*

فهذا التخييل المتضمن في البيت، لا يمكن أن يكون من جهة الإقناع في الخطابة. فكل قول قياسي مبني على التخييل فهو شعر. وقد أورد حازم القرطاجني بيتًا لأبي تمام يقول فيه:

*أخرجتموه بكرهٍ من سجيته *** والنار قد تنضى من ناضر السلم*

فعلّق على البيت قائلا: "فالأقاويل التي بهذه الصيغة، خطابية بما تكون فيها من إقناع، شعرية بكونها متلبسة بالمحاكاة والخيالات"[14].

---

[11]) المصدر السابق، ص81 إلى 83.

[12]) نفسه، ص346.

[13]) المصدر نفسه، ص63.

[14]) نفسه، ص67.

وعموما يقرر حازم القرطاجني جملة من الحقائق أثناء مفاضلته بين الشعراء، منها:

– أن الشعر يختلف بحسب اختلاف أنماطه وطرقه، فشاعر يحسن فيما قصد فيه الجزالة والمتانة، ولا يحسن فيما قصد فيه الرقة واللطافة. وشاعر يحسن النسيب ولا يحسن في الهجاء.

– الشعر يختلف باختلاف الأمكنة وما يوجد فيها، مما شأنه أن يوصف من الأشياء المصنوعة أو المخلوقة.

– الشعر يختلف بحسب أحوال القائلين وأحوال ما يتعرضون للقول فيه، وبحسب اختلافهم فيما يستعملونه من اللغات الحوشية والغريبة أو اللغات المستعملة في زمانهم.

– يختلف الشعر حسب اختلاف الأشياء فيما يليق بها من الأوصاف والمعاني وهكذا، فإن أي تفاضل بين الشعراء إنما يكون "على سبيل التقريب وترجيح الظنون"[15].

[15]) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص374.